

دروس في مادة: بيليوغرافيا النقد العربي القديم

لفائدة طلبة السنة الأولى (ماستر " أدب عربي قديم ") الفوج الثالث

عنوان المحاضرة الرابعة: الشعر والشعراء لابن قتيبة (190هـ-231هـ)

أ. بلقاسم دكدوك

ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري 213 هـ-276 هـ، أديب فقيه محدث مؤرخ عربي من العصر العباسي له العديد من المؤلفات منها: عيون الأخبار، أدب الكاتب، الشعر والشعراء [1]، وهو من أهم الكتب التي ترجمت للشعراء، ويعد مصدرا أصيلا ومرجعا هاما في باب، وهو شديد الشبه بكتاب " طبقات فحول الشعراء " لابن سلام الجمحي، وابن قتيبة ناقد له شأن كبير في الدراسات الأدبية، وعالم واسع المعرفة والاطلاع، لم يترك بابا من أبواب الثقافة العربية إلا وأقبل عليه دارسا ومحللا ومؤلفا. وقد اطلع على الثقافتين اليونانية والفارسية المعروفتين في عصره.

جاء العصر العباسي الذي قام بحفظ هذا التراث العربي الإسلامي على مر العصور، عن طريق التدوين واهتمام العلماء باللغة والشعراء، وكل ذلك أسهم إسهامًا كبيرًا في حفظ التراث الذي يعدّ تاريخًا يُعْتَزُّ به، قبل أن يكون مادة معرفية تُدرّس.

الشعر والشعراء لابن قتيبة، من أهم كتب التراث الشعري الذي كتب في العصر العباسي؛ إذ يختص هذا الكتاب بالترجمة عن الشعراء المشهورين في الفترة الممتدة ما بين العصر الجاهلي إلى العصر العباسي.

وقد امتاز الكتاب بمقدمة نقدية قيمة يعدّها الباحثون من بواكير النقد الأدبي المصحوب بالعلل. وقد بيّن فيها منهج الكتاب والغرض من تأليفه حيث يقول: "هذا كتاب ألّفته في الشعر، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم، وعمّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجد من شعره وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون. وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها. ويقوم كتاب الشعر والشعراء على قسمين، هما:

القسم الأول: مقدمة طويلة في الشعر والشعراء، وهي ذات قيمة أدبية ونقدية كبيرة، ذكر فيها أقسام الشعر، ولغته ومعانيه وألفاظه وعبوبه، مؤيدا ذلك بآراء نقدية مهمة، وتحدث في نهاية المقدمة عن أوائل الشعراء.

القسم الثاني: تراجم الشعراء ، بدأها بترجمة امرئ القيس وختمها بترجمة أشجع السلمي، وعدد الشعراء الذين ترجم لهم مائتان وستة (206) شعراء، ويمكن ملاحظة أنه لم يقتصر في كتابه على تراجم شعراء عصره فقط، إنما ضمنه الشعراء الجاهليين والإسلاميين والأمويين أيضًا.

القضايا النقدية في كتاب الشعر والشعراء:

تحدث ابن قتيبة في كتابه " الشعر والشعراء " عن أبرز القضايا التي شاعت في عصره، ومنها لغة الشعر وقضية اللفظ والمعنى والطبع والتكلف، والقلم والحديث من الشعر، والسراقات الشعرية، وبيان ذلك فيما يأتي:

الموضوعية في الأحكام النقدية:

يبني ابن قتيبة أحكامه النقدية على قضايا تتصل بالشعر نفسه، بصرف النظر عن مبدعه، وما يتصل به من أحوال وشؤون، ولذلك فإنه يحدد مقياسًا نقديًا هو الحُسن والجودة في الشعر، وبذلك يكون قد استبعد قضية الزمن الذي عاش فيه الشاعر، والطبقة الاجتماعية للشاعر، وهذا جعل أحكامه موضوعية في النقد، فقد اتخذ موقفًا واضحًا ألا وهو الاهتمام بالشعر بصرف النظر لبعض القضايا المحيطة بالشاعر نفسه، حتى أنه رفض ما قام به علماء عصره من رفضهم لبعض الشعراء في كتبهم لسبب لا يتعلق بجودة الشعر، وهو الزمن الذي ينتمي إليه الشاعر، (إن كان ينتمي إلى عصر الاحتجاج النحوي أم هو خارج هذا العصر)، بينما كان ابن قتيبة لا يهتم بقضية الزمن، وكان مناصرًا لشعراء عصره من المجيدين في الشعر، فنظر نظرة العدل بين الشعراء، ولم يتأثر بغيره من الكتاب.

اختلاف شعر الشاعر:

يربط ابن قتيبة اختلاف شعر الشاعر بعامل الزمان وتبدل الحال، مما يؤثر في قابلية النظم وملكة الإبداع، واستدل ابن قتيبة بقول الفرزدق: "أنا أشعر تميم وربما أتت علي ساعة، ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت". وانطلاقًا من هذا القول، وضح ابن قتيبة أن مسألة الإبداع الشعري لا يكون في كل الأوقات والظروف بل إنه يأتي الشاعر في أوقات محددة منها: أول الليل، في صدر النهار قبل الغداء أو الخلوة في الحبس، ويعده ابن قتيبة هذه الأمور سببًا في اختلاف شعر الشاعر أو رسائل الكتاب، ولذلك يجد أنه من الطبيعي أن يتعذر على الشاعر أو الناثر القول، دون معرفة سبب مقنع لذلك.

قضية الطبع والتكلف:

تحدّث ابن قتيبة عن هذه القضية في مقدمة الشعر والشعراء، ووجد التكلف ظاهراً في الشعر، يكتشفه أهل العلم والخبرة، حتى وإن كان الشعر جيداً، فهم قادرون على أن يتبينوا العناء الذي يتكبده الشاعر في كتابة أبياته الشعرية، بالإضافة إلى كثرة الضرورات، وزيادة المعنى، وقد عدّ ابن قتيبة عبيد الشعر "زهيراً والحطيئة وكعباً..". من هذه الفئة، أما الشعر المطبوع فالشاعر فيه مقتدر على القوافي، ويشعر السامع له أنه شعر فيه رونق الطبع، ولم يغفل ابن قتيبة عن الإشارة إلى أن الشعراء يختلفون في الطبع: فمنهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يسهل عليه نظم الشعر في المراثي ولا يستطيع نظم الشعر في الغزل.

قضية أقسام القصيدة:

يرى ابن قتيبة أنّ معظم الشعراء القدامى يتخذون نهجاً واحداً في تسلسل موضوعات القصيدة، وأشار إلى أنّه سمع ذلك من أهل الأدب، فالشاعر أو مقصد القصيد، يبدأ القصيدة بذكر الديار والدمن والآثار، ويقصد بذلك الوقوف على الأطلال؛ ليذكر أهلها الراحلين عنها، ثم يصل ذلك بالنسيب أي الغزل ويشكو الشوق وألم الفراق ليستميل قلب السامع، ثم يذكر الرحلة وصعوباتها من حر الهجير، وتعب الرحلة، ثم ينهي قصيدته بالمديح للسامع حتى يحثه على مكافأته، ونيل العطايا منه.

- قضية اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون - حسب المصطلح النقدي الحديث:

وهي من القضايا المهمة التي تطرق إليها ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء، وهو يعبر عن رأي نقدي في موضوع يتعلق بجودة الشعر أو رداءته، وقد قسمه إلى أربعة أضرب، يقول ابن قتيبة: "تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب" والناظر في أمثلة ابن قتيبة وتعليقه عليها سيجد أنّه يخلع خصائص على اللفظة الجيدة مثل: جودة المخرج وسهولته، تجنب تكرار اللفظة، الفصاحة وقوة الإبانة عن المعاني، يقول ابن قتيبة: "حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى"، أمّا المعنى فقد اهتم فيه بالإصابة والجدّة، بحيث يكون الشاعر قادراً على التصوير بدقة لوصول القصد للمتلقي، والجدّة في ابتكار المعنى الذي لم يُسبق إليه، فيبتدع الشاعر معنى جديداً، ويجب أن يكون المعنى مفيداً. وفيما يأتي ذكر لهذه الأضرب، مع ذكر أمثلة عنها:

ضربٌ منه حسن لفظه وجاد معناه، مثل قول الفرزدق:

يُعْضِي حَيَاءً وَيُعْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

ضرب ما حسن لفظه وقصر معناه، مثل:

ولما قضينا من منى كلَّ حاجةٍ ومسَّح بالأركان من هو ماسحُ

وشدَّت على حذب المهاري رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيِّ الأباطحُ

يلق ابن قتيبة على هذه الأبيات، فيقول: "هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس، لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطيُّ في الأبطح".
ضرب جاد معناه وقصر لفظه، مثل قول لبيد بن ربيعة:

ما عَانَبَ المرءَ الكَرِيمَ كَنَفْسِهِ والمرءُ يُصَلِّحُهُ الجَلِيسُ الصَّالِحُ

يلق ابن قتيبة بقوله: ((هذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه قليل الماء والرونق"

ضرب ساء لفظه ومعناه، كقول الفرزدق:

والشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

إن مقياس جودة المعنى الشعري عند ابن قتيبة ليس أن يكون الشعر مفيداً فحسب وإنما أن يكون مفيداً بما فيه من حكمة أو معلومة أو معنى أخلاقي، أو مؤثراً بما فيه من صور فنية أو تصوير للمشاعر.

ملحوظة: للدرس مراجع، أولها كتاب " الشعر والشعراء" لابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة، 1966

- أسس النقد الأدبي عند العرب. د. أحمد بدوي. مكتبة نهضة مصر الطبعة الثالثة 1964م.

- مقال إلكتروني، القضايا النقدية في كتاب الشعر والشعراء، حنين معالي، بتاريخ 27 جوان 2019.

ملحوظة 2: يمكن للطلبة الأعزاء متابعة محاضرات "سمعية بصرية" من النت، على الموقع الآتي:

<https://www.youtube.com/watch?v=xiYXGQsh0LM>

لفائدة طلبة السنة الأولى (ماستر " أدب عربي قديم") الفوج الثالث

عنوان الدرس الخامس: نقد الشعر لقدامة بن جعفر (260هـ-327هـ)

أ. بلقاسم دكدوك

قدامة بن جعفر:

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر بن زياد البغدادي، ولد في البصرة في الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري، بالتحديد سنة: 260 أو 276 هجرية، الموافق عام: 889 م وأدرك ثعلبًا والمبرّد وابن قتيبة وطبقتهم، ونشأ في بغداد، وهو من أصول أعجمية، كان نصرانيا ثم أسلم على يد الخليفة العباسيّ المكتفي بالله، وتوفي سنة 337هـ، الموافق لـ 948م. قال عنه المترجمون: إنه كان ممن يشار إليه في علم المنطق، وأحد الفلاسفة الفضلاء¹. (ينظر: الفهرست لابن النديم، ص130).

قرأ واجتهد وبرع في صناعتي البلاغة والحساب، وتأثر بالمنطق والفلسفة، وهذا مما يبدو في تصانيفه، كما برع في اللغة والأدب والفقه والكلام. وكان أحد رجلين عرف علم البديع، ورسم طريقته وأوضح نهجه، وأبان للناس سبيله، له طريقة فذة في التأليف، تجمع إلى غزارة المادة عمق التفكير، وكانت ثقافته ذات مصدرين؛ أحدهما عربي يتجلى في كل صفحة من صفحات مؤلفاته، والثاني يوناني يتجلى أكثر ما يتجلى في كتابه "نقد الشعر"، الذي بدا فيه أثر كتاب "الخطابة" لأرسطو.

برع قدامة في صناعتي البلاغة والحساب، وتأثر بالمنطق الأرسطي فألف كتاب "نقد الشعر"، وانحاز بحكم هذه الثقافة إلى تقدير المعنى، فألف كتاب " الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام"، وكتاب " صناعة الجدل". إلا إن صلته بثعلب وأمثاله من علماء القرن الثالث هي التي وضعت في يديه المادة الأدبية الصالحة لسند آرائه النظرية². (ينظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص190).

صفحة كتاب " نقد الشعر" لقدامة بن جعفر:

يبدأ كتاب " نقد الشعر " بمقدمة، يعرض فيها ضروب العلم بالشعر فيقول: " العلم بالشعر ينقسم أقساما، قسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطععه، وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد منه، وقسم ينسب إلى علم جيده وردئه " ³. (قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص3-7).

إن النقد عند قدامة، "علم" ومجاله تخلص الجيد من الرديء في الشعر، أما سائر ما يتعلق بالشعر من علم العروض والوزن والقوافي، والغريب واللغة والمعاني، فليس ما يدخل في باب النقد إلا على نحو عارض، وقد أكثر الناس في التأليف في تلك العلوم وقصروا في علم النقد ⁴. (إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص191).

ويعرف قدامة الشعر، بأنه كلام موزون مقفى وأنه صناعة، أي إنه لا يعتمد على الطبع وحده، وإنما يلزمه التعلم والتجويد والممارسة والحدق، كسائر الصناعات، وهو إذ يعرف الشعر يبدو متأثرا بالمنطق الأرسطي، فيجعل له أربعة أصول أو دعائم هي:

اللفظ والمعنى.

والوزن والقافية، ويسميتها أجناسا مفردة.

ويتركب منها أربعة أخرى مؤلفة منها هي: ائتلاف اللفظ مع المعنى، وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى مع الوزن، وائتلاف المعنى مع القافية.

تشكل هذه الأقسام الثمانية أساس نقد للشعر وهيكل كتابه. ولكل واحد من هذه الأقسام (الأجناس) صفات يُمدح بها وصفات يُدّمّ بها.

يلجأ قدامة إلى ثقافته الفلسفية فيحدد الصفات الإيجابية مترسما نظرية الفضيلة لأفلاطون. فقد وجد أن أفلاطون " يجعل الفضائل الكبرى أربعاً: العقل والشجاعة والعدل والعفة، وبما إن مدح الرجال معناه ذكر فضائلهم، فمن أتى في مدحه بهذه الأربع كان مصيباً، ومن مدح بغيرها كان مخطئاً. وهذه الفضائل أمهات ذات فروع، ولا بأس أن يمدح الشاعر بكل ما يتفرع عن كل فضيلة منها " ⁵. (إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص195-196).

والهجاء مثله مثل المديح، ولكنه مضاد له، أي يدور حول الصفات النفسية المضادة لصفات المديح، لأن الهجاء سلب المهجو صفات المدح، ووصمه بوصمات القدح، ولذلك فإن أقذع الهجاء ما جرد المهجو من الفضائل النفسية، لا ما عابه بالنقائص الجسدية.

يتضح من فهم قدامة الخاص للتراجيديا والكوميديا باسم المديح والهجاء، أن الشعر يقوم على قاعدة أخلاقية أساسية، ولكن كيف يتم التوفيق بين هذه القاعدة الأخلاقية وبين إقرار قدامة بالعلو لدى الشاعر والفحش والتناقض؟ ولا يمكن التوفيق إلا من خلال ما فهمه بطريق الخطأ من كتاب الشعر، أي إن المدح يتصل بالأفضل (التراجيديا)، والهجاء (الكوميديا) يتصل بالأراذل، فباب الغلو في الشعر لا يراد به إلا المبالغة والتمثيل وليس حقيقة لشيء، يقول قدامة معلقا على ذلك: "إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما. وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذا يرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم"⁶. (قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص26).

كتاب "نقد الشعر في الميزان":

"اختلف موقف العلماء تجاه نقد الشعر لابن جعفر، وهو كالأتي: فمنهم من أنثوا عليه وتصدوا لنصرته، من أمثال عبد اللطيف البغدادي في تأليفه "كشف الظلمات عن قدامة"، وابن أبي الإصبع في كتابه "الميزان". ومنهم من رفضوا رأيه الذي تبناه في كتابه مثل الآمدي، وألف كتابا سماه "تبيين غلط قدامة"، وابن رشيق في كتابه "تزييف نقد قدامة".

ومن النقاد - فيما يبدو لنا - من كان لهم اتجاه وسطي؛ لأن هذا الكتاب بناء هندسي انشغل أولا بتقسيم الأجزاء والأركان، فبعد أن أتم هذا التقسيم ملاً هذه الأركان بنقد الشعر. ومن هنا يكمن العيب الأساسي والمآخذ الرئيسة؛ حيث نقد الشعر بعيدا عن الشعر، فهو لم يقيم بنقده للعمل الشعري انطلاقا مما توجهه الظاهرة نفسها، ولكنه أقام بناء نقديا بعد ذلك أقحم فيه الشعر، ولعل هذه العملية ناتجة عن تأثره بالفلسفة والمنطق؛ ولهذا قد يكون عمل قدامة مفيدا في جزئياته المتفرقة لعلماء البلاغة، دون علماء النقد."⁷ (كوفي أحمد موسى، مفهوم الشعر عند قدامة من خلال كتابه نقد الشعر، شبكة الألوكة، موقع إلكتروني).

لا شك أن أثر المنطق في قراءات قدامة للشعر، بدا في كون قدامة يريد أن يضع للشعر عامة، "مخططا منطقيا بقطع النظر عن السعة والشمول وحكم الذوق"⁸. (إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص206). والخلاصة: إن قدامة يرى وجوب الفصل بين شكل الشعر ومضمونه، بوصفه صناعة على أصول صناعة، أي قدرة على التعبير في قوالب من المعاني والألفاظ، تبلغ حد الجودة حسب تقاليد هذه الصناعة. ومن هذا المنطلق فلا عجب أن يتناول الشاعر الموضوعات المنافية للأخلاق والعرف والدين، مادام محسنا في صناعته. يقول محمد مندور حول جهود قدامة النقدية: "إن كتاب قدامة لم يؤثر لحسن الحظ تأثيرا كبيرا في النقد، وكل ما له من فضل هو وضع عدد من الاصطلاحات وتحديد بعض الظواهر"⁹. (محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص72).

وتلك الاصطلاحات هي التي أخذ بها علماء البلاغة دون النقاد، ولا ريب في أن جهوده النقدية ظلت شكلية في إطار المصطلحات والتقسيمات المنطقية التي تركز على نظرية محددة، ترضي أصحاب المنطق والثقافة الفلسفية. وكان كتاب قدامة "نقد الشعر" كالمعلم المتزمت، أو سرير بروكرست، من كان طويلا فلا بد أن يُقصّ جزء منه كي يستطيع أن ينام فيه¹⁰. (إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص214).

ولا شك-أيضا- لفي أن هذا الاتجاه الشكلي هو المسؤول عن جمود البلاغة وتحجرها في القرون اللاحقة.

المراجع:

- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد 1962.
- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري)، دار الثقافة، لبنان، ط1983، 4.
- ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1978.
- محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، مصر، دت.
- كوني أحمد موسى، مفهوم الشعر عند قدامة من خلال كتابه نقد الشعر"، شبكة الألوكة، موقع إلكتروني